فاعلية السرد في الخطاب الروائي الجزائري
قراءة في المتون النقدية

د. حميدي بلعباس
كلية الآداب جامعة معسكر

يندرج هذا البحث في مجال نقد النقد، حاولنا من خلاله تقفي آثار النقد الجزائري وكيف قارب الخطاب الروائي الجزائري المعاصر، وقد اعتمدنا في هذا المسعى على مجموعة من المتون النقدية الجزائرية محاولين ابرازمدى مواكبة هذا النقد للمناهج الحديثة. لقد حاولت الرواية الجزائرية في نظر العديد من النقاد بناء نمطية سردية خاصة تقوم أساسا على مراعاة الخصوصيات التاريخية والاجتماعية للشخصية الجزائرية، وذلك بدعوى تحقيق فاعلية السرد، ذلك ما سعى إلى تجليته الخطاب النقدي الجزائري في قراءته للمتون الروائية الجزائرية.

لقد حظيت الرواية الجزائرية لدى مخلوف عامر بمعاينة انكبت على تتبع أهم التحولات المضمونية في الرواية المكتوبة بالعربية ورغم الكم الكثير من الروايات التي أخضعها للدراسة فإنه لا يمكننا إلا أن نقف عند عينة من مجموع هذه العينات وذلك لاستجلاء منهجية هذا الناقد الخاصة ضمن إطار النقد في قراءة مضمون الرواية. إذ نراه يقف عند رواية"سيدة المقام" للروائي واسيني الأعرج فيقول عنها : «أنها كتبت والأحداث الإرهابية على أشدها، لكننا في هذا العمل لسنا أمام كاتب ترد عليه الأخبار مسموعة أو مكتوبة وتقتحم عليه خلوته وتفكيره فيلصقها بجسد النص الروائي، بل إن واسيني ينقلنا من الأخبار إلى الأفعال، يشد القارئ من يده كما يشد المحبوبة مريم، ويتجول به في شوارع العاصمة يدخل مطاعمها ومقاهيها ويشاهد معه الرقص في الأوبرا، قد يقودك إلى أعلى جسر فيها فتطل عليها بنظرة بانورامية وقد ينزل بك عند قدميها لتنعم بنسيم الشاطئ وتتأمل عظمة البحر »[1]. وفي كل هذا لا يفارقك حضور شخصيات حراس النوايا، لا يفارقونك ولا يفارقون ظلال المدينة النص.

وفي مقام آخر، حظيت رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي بما لم تحظ به أية رواية جزائرية كونها وطدت ثقة النقاد بأدب المرأة الجزائرية، فهي رواية تتجاوز إطار الحبك الحدثي أو رسم الصور النفسية أو اللوحات الاجتماعية والطبيعية من يوميات الإنسان الجزائري لذلك يقول مصطفى بلمشري: « أن الكاتبة أحلام مستغانمي في ميدان الأدب

قصاصة روائية بارعة لا تجيد فقط حبك الحوادث بمهارة ولا تحسن تصوير النفسيات وخلق نماذج الأشخاص بدقة فحسب، بل إنها تعرف كيف تبني ذلك كله على أساس من عمق فلسفي وعلاقة واقعية تربط أنماطا معينة من الوقائع والناس بالمحيط الاجتماعي وبالحركة التي تندفع فيها حياة الناس والأشياء في هذا المحيط »[2]. فهيعلى قوة لغتها متمرسة على استعمال التقنيات الفنية للرواية الحديثة وتجاوز ذلك بالتركيز على المدلولات النفسية والاجتماعية والسياسية للفن القصصي، حيث يلفي القارئ مثل هذه المدلولات مسايرة للموقف التقدمي الإيجابي من حركة المجتمع والتاريخ.

وفي اتجاه مقارب، وفي مقاربة لرواية "رمل الماية "للروائي واسيني الأعرج، حاول جمال فوغالي أن يتتبع أصوات السرد داخل هذه الرواية كونها تعد رواية حداثية استطاعت أن تقوم على تشظية السرد والزمن وأبدعت في تفكيك البنية المعمارية الروائية معتمدة على تقنيات التأجيل حيث سجلت هذه الرواية نزوعا شعريا خلاقا للمعاني والأساليب بيد أن الملاحظة في تفرد هذه الرواية هو وجود سلسلة من التداخلات لأصوات السرد حيث تتعدد تارة، وتتنافر كصوت واحد تارة أخرى، مؤلفة شخصية "البشيرالمورسكي" مركز المحكي وبؤرة الحكاية بوصفها ساردا وشخصية يتوازى من خلالها الواقعي والأسلوبي، التاريخ والمتخيل وتهيمن داخلها سلطة المناجاة الداخلية (المونولوج)، كل ذلك يراه جمال فوغالي[3] متساوقا ومتناغما يمنح للرواية جدتها وطرافتها وإضافاتها الجديدة لشكل الرواية العربية.

تعد رواية "رمل الماية "في نظر جمال فوغالي رواية « متعددة الشخصيات الساردة الفاعلة داخليا للسرد، إنهم يتناوبون على القيام بالحكي وهم أعوان للسرد على درجة كبيرة من الفعل ينهضونبمشاريعهمالسردية، فالرواية في عمقها رواية فعلحتى [و إن] طغى السرد وقلّ الوصف »[4]. فشخصيات رواية "رملالماية" (القوالون والوراقون، الحكيم شهريار، إبن المقتدر والبشير الموريسكي، الحكماء /العلماء السبعة ومؤرخو السلطة، دنيا زاد وشهرزاد، مريانة ومريوشا عمال البحر والقصر. . . الخ. . .)؛ كلها بأصواتها تختلط وتتماهى بعضها في بعض، بل إن فيكثير من الأحيان ليغيب عن القارئ استبانة نسبة أي صوت لشخصية محددة لذلك قد يتطور القارئ في لعبة القراءة المتكررة أو التدقيقية، إذ يبدو فرز الأصوات داخلها صعبا وحتى نسبة الأفعال أو الأقوال أو الاستذكار يصعب كونه يقوم على هندسة لغوية تمليها لعبة الكتابة.

يثيرجمال غلاب في مقاربته لرواية "بحر بلا نوارس "للروائي جيلالي خلاص الانتباه لأسلوب هذاالروائي المتميز والذكي في نفس الوقت في عرض الأحداث، ولعل مما قد يثير

الاستغراب أمام شريط الأحداث المتوالية داخل متن الرواية اكتفاء الراوي بتدوينها دون تعليق أو إضافة وكأنه بذلك يرسم كرنولوجيا للحدث الواقعي حيث يعد ذلك حسب جمال غلاب طريقة من طرق « الرمزيين في التلميح »[5]. إن قوة هذا الاستعمال وتميزه تبرز من خلال إدراج القارئ في شباك النص حتى يتجاوب مع الأحداث بوصفها تساؤلات فيجد نفسه بذلك منقادا إلى طرح الحلول أو الإجابة عنها. كل ذلك مرده إلى غياب« الثقافة والمثقف وشريط الأحداث الذي دونه بدون تعليق فحسب، تلميح للروائي إلى أنه لو كان حضور المثقف قويا بعد الاستقلال في صنع القرارات المصيرية ما كان لهذه الأحداث أن تقع »[6]، فتولد عن هذا الفراغ أو الهوة التي اتسعت بين المثقف والسلطة اكتساح لما عبر عنه الروائي بالنمور والفهود والذئاب الضارية والثعابين مستغلة بذلك الظلام.

إن استكناه مغاليق نص رواية "خوي دحمان " للروائي مرزاقبقطاشتثير الكثير من المشاكسة، وتحبذ أدبيات المداعبة، فغاية الروائي حسب بقطاش ليست سرد أحداث تاريخية يتقاسمها السواد الأعظم، والغاية كل الغاية في سرد الأحداث هي التوصل إلى فلسفة السؤال[7]، فلسفة تقوم على المساءلات المحرجة وتقود إلى الغوص في البحث عن هويتنا وعمق حقيقتنا داخل هذه الأحداث « لذلك لا يمكننا، بأي حال من الأحوال، الاكتفاء بظاهر النص الروائي الذي يمكننا اختصار مضمونه في جملة أو جملتين كونه يتضمن عقدة واحدة مفادها قلق البطل خوي دحمان على ابنه محمد الذي سافر في بعثة دراسية إلى الخارج. . . فهو يريد منه أن يعود إلى أرض الوطن غانما بالشهادة لا مرفوقا بابنة الرومية »[8]. . بيد أن هذا النص في نظر جمال غلاب[9] وإن كان يبدو له بسيطا، فهو يحتاج إلى قراءة جادة وحادة، قراءة تتجاوز النمط العام في تلقي النصوص، إذ من الخطأ والسذاجة حصر القلق في زواج ابنه من ابنة الرومية، والواقع أن مفاتيح القراءة كامنة في شخوص الرواية ف"خوي دحمان" مثلا هو رمز لأجيال ما قبل الاستقلال، وأبنه محمد يرمز إلى جيل الاستقلال، أما ابنة الرومية فهي من مخلفات المستعمر الفرنسي على الذاكرة الجماعية للجزائريين.

الإحالات:

1- مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2001، ص. 99.

2- مصطفى بلمشري، الرواية الجزائرية ومعايشتها للأزمنة الوطنية، مجلة عمان، ع114، 2004، ص. 16.

3- جمال فوغالي، أعوان السرد غي رواية رمل الماية، مجلة التبيين، ع10، 1995، ص. 34

4- جمال غلاب، مقاربات في جماليات النص الروائي، دراسات، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، دار هومة، الجزائر، ط 1، 2000، ص 45.

5- م ن، ص ن.

6- م ن، ص 31.

7- جمال غلاب، مقاربات في جماليات النص الروائي، ص. 30.

8- م ن ص 30.

9- عمارزعموش، جدلية الواقع والفن في رواية الولي الطاهر يعود الى مقامه الزكي، مجلة التبيين، ع 18، 2002، ص. 47.